

## مقدمة المترجم

«إنه لمن الواضح سلفاً أن هذا المجتمع المدني يشكّل البؤرة الحقيقية، المسرح الحقيقي للتاريخ كله، كما يظهر مقدار سخف التصورات السابقة عن التاريخ؛ هذه التصورات التي تهمل العلاقات الواقعية، وتقتصر على الأحداث التاريخية والسياسية الرنانة»<sup>(١)</sup>.

(كارل ماركس)

### إهداء إلى المواطن:

لو تغاضينا عن آلام الواقع الثقيلة التي تبعدنا كل يوم عن القراءة أكثر من اليوم السابق، لقلنا إن هذا الكتاب لا بد أن يقرأه كل مواطن. إنه يمثل أهمية بالغة لكل مواطن عربي في المرحلة الراهنة. إذ يحوي وصفاً تفصيلياً لعملية ممارسة التفكير السياسي الغائبة عن فضاء الواقع اليومي المِعاش، تلك العملية التي لا شك باتت ضرورةً ملحةً لخروجنا من واقعنا الملتبس المتلاطم بين أمواج الاستغلال تارةً من فصائل سياسية وتارةً أخرى من الشركات عابرة القارات، وكل هذا وسط مناخ عالمي يجور أكثر فأكثر على مساحات الحرية والتعبير، والمساحات العامة الحرة. جملة واختصاراً، يجور على حيز المجتمع المدني.

لا نقصد بالانحطاط هنا التوصيف الأخلاقي فحسب؛ بل أيضاً ما يعيشه المواطنون، من واقع يمثل فخاً معقداً، يستنفد كل طاقاتهم وآمالهم في «جهاد خاسر» مع مفردات الحياة اليومية، بين استهلاك وتلقي وانتظار ما هو

---

(١) كارل ماركس، فريدريك إنجلز، الأيديولوجيا الألمانية، ترجمة: د. فؤاد أيوب، دار دمشق

للطباعة، والنشر، ١٩٦٨م.

جديد من شركات عالمية تتنوع منتجاتها بين السلع والأفكار وسبل القمع المحنكة. ولعل أكثر ما يلخص هذا الوضع أننا بنتنا في حضرة عالم يرأس أكبر قوة فيه رونالد ترامب! إنه اسمٌ ومحصلة تلخص ردةً وارتكاسةً تزيدنا حسرةً على مساحة الحريات والحقوق التي قطع الإنسان رحلةً طويلةً لتحقيقها وبُذلت من أجلها دماء وأرواح، وظهرت حولها نظريات وفلسفات ومؤسسات. وهذا ما يستعرضه هذا الكتاب بتفاصيل عملية وملهمة.

حين نقول «جهاد خاسر»؛ فذلك لأن جهود معظم المواطنين المبذولة في سبيل حصولهم على «لقمة العيش» هي جهود محاطة بمستنقع من الفساد. وبديهي أن يؤدي وضع كهذا بالمواطنين وجهودهم إلى دائرة مفرغة للعيش على حد الكفاف. فالمواطن الذي يستنفد حياته اليومية في صراع من هذا النوع، دون خوض صراعاتٍ أخرى مهمّة من أجل تغيير واقعه وتحقيق التطور لمجتمعه، لن يجد القدرة التي تمكّنه من تخطي قاع هرم الحاجات البشرية الذي أجاد أبراهام ماسلو Abraham Maslow في تصويره حول الحاجات والدوافع<sup>(٢)</sup>، ومن ثمّ لن يتمكّن من الوصول إلى مرتبة أعلى تسمح بتحقيق الذات والمشاركة الفاعلة في واقع مجتمعه، بدءاً من الأسرة حتى الدولة، مروراً بتنظيمات المجتمع المدني «بيت القصيد» في هذا الكتاب.

## دائرة الاستهلاك المنهك وفرص التقدّم المجتمعي:

نرى خلال صفحات هذا الكتاب النقاط التي تتقاطع فيها فكرة التحقّق والارتقاء لتحقيق الصالح العام، في بيئة مساعدة، عند مفكرين كثيرين في

---

(٢) نظرية سيكولوجية مشهورة باسم العالم الأمريكي أبراهام ماسلو. وكان قد قدّمها في ورقة بحثية عام ١٩٤٣ في دورية Psychological Review. وقد طورها لاحقاً مستخدماً عينات بشرية وصفها بأنها مثالية على مجموعة من الأصحاء والمشهورين، وقد شرح نظريته بالكامل في كتابه الدوافع والشخصية Motivation and Personality عام ١٩٥٤م. تتدرج الحاجات البشرية حسب أهميتها في شكل هرمي لتبدأ في القاعدة بالحاجات الفسيولوجية (تنفس، طعام، ماء، نوم، جنس، توازن، إخراج)، وتنتهي في قمة الهرم بالحاجة إلى تحقّق الذات (الابتكار، حل المشاكل، تقبل الحقائق). للمزيد حول التدرج الهرمي للحاجات ودلالاته في تفسير الشخصية، انظر: نظرية ماسلو للحاجات الإنسانية، أكاديمية علم النفس، عبر هذا الرابط:

<https://acofps.com/vb/44749.html>

كما يمكن الاطلاع على تفاصيل بالصور التوضيحية على موسوعة ويكيبيديا بالإنجليزية والعربية باستخدام اسم العالم.

عصور مختلفة، من بينهم ابن ميمون الذي نتعرض لإسهاماته في الفصل الخامس: لماذا يُعدُّ تحقيق هذه البيئة أمرًا مهمًّا؟ لأن الناس إذا أُتيحت لهم خيرات المجتمع الذي يعيشون فيه سيتمكّنون من الارتقاء بعقولهم وارواحهم ويحقّقون ذاتهم. فإذا كان الناس جياعًا وبلا مأوى، أو إذا كانوا في ألم وتحيط بهم المعاناة، فمن غير المرجّح أن يفكّروا، ولن يكونوا قادرين على الانخراط في التأمل والتفكير العقلاني<sup>(٣)</sup>.

ربما نجد في هذا الكتاب - بتنوّع مضمونه - ما يمكّننا من مواجهة التحديات الجديدة في أواخر العقد الثاني من الألفية الثالثة! فثمّة تجارب شبيهة بما حدث لمجتمعاتنا على مر العصور. سنجد - على سبيل المثال - فلاسفة يتناولون هذه الأمور من واقع ما كانوا يعيشونه هم أيضًا من درجات تردّ فكريّ، وصراع بين قوى الخير والشر وقوى العدالة والتسامح. وهذا ما يساعدنا بلا شكّ في تحليل واقعنا وعناصره من سلبياتٍ وحيثٍ على القيم النبيلة، والنضال من أجل تغيير هذا الواقع، وصولًا في نهاية الأمر إلى تحقيق العدالة، وغيرها من القيم التي لا ينهض مجتمع من دونها.

إذا كان المواطن العربي في وقتنا الراهن يعاني لامبالاة مزمنة وعزوفًا عن ممارسة التفكير السياسي، تلك العملية التي تعزّز لديه الرغبة وتمكّنه في الوقت نفسه من ممارسة المشاركة السياسية على أرض الواقع بأدوات ناجعة، فإن هذه اللامبالاة في حقيقة الأمر تدعمها - بالحرمان والتضييق - أنظمة حكم قمعيّة بوليسيّة. وهو ما يشكّل في مجمله واقعًا لن يُكتب له الاستمرار مَهْمَا طال الزمن. فهل تتفنّن السلطات في وسائل القهر والإفساد، أم تنجح الشعوب في ابتكار وسائل تمنع وصول المتسلّطين والفاستين إلى السلطة؟ وما علاقة هذه الأسئلة بهذا الكتاب؟ إن هذا الكتاب يحتوي إجاباتٍ شافيةً على هذه الأسئلة بالتجربة والحجّة والدليل.

إنها سنّة الحياة! لا ينبغي أن نقف عاجزين أمام إحدى دوراتها مستسلمين لسياسة الأمر الواقع الجائرة؛ بل يجب أن نثار، وألّا نفقد قناعتنا بأن الإنسان - بوصفه كائنًا واعيًا - قادرٌ على تحقيق و«إنتاج» أساس كل ما

---

(٣) انظر: الفصل الخامس من هذا الكتاب.

في الحياة. فهو على عكس غيره من الكائنات، يمكنه الحكم على الأمور بما يتفق مع قوانين الجمال<sup>(٤)</sup> والتقدم الإنساني. والشيء الذي يهمننا هنا، هو أن الإنسان بإمكانه معرفة قدراته، واختيار أنماط الحياة التي تضمن له الازدهار الإنساني. وهذه الإمكانية للأسف يجرده منها وضع العمل العبودي والسخرة، وكذلك الوضع الذي يصبح فيه المواطن أسير البحث عن «لقمة العيش». وهذا ما يرجع إلى أن الإنسان لا يمكنه مطلقاً أن يتحرر من العيش مثل الحيوانات، إذا ظلّ معنياً فحسب بحاجاته المباشرة التي تبقيه على قيد الحياة (سنطالع هذه الأطروحة بالتفصيل في الفصل الثالث عشر).

هكذا، فإن الدافع وراء ترجمة هذا الكتاب يتمحور حول إمكانية الاستفادة العملية من الأفكار والتجارب التاريخية والسياسية التي يحتويها، وترجمة مثل هذه التجارب إلى دروس مستفادة في نضال المواطنين من أجل تحقيق الصالح العام؛ نضال لا يتوقف عند شكل أو درجة بعينها؛ بل يمتد من المناصرة والدعوة إلى الإصلاح حتى توير المجتمع، وتغيير أنظمة الحكم، ووضع دساتير، وتأسيس أنظمة جديدة. ونحن في ذلك على علم بأن محتويات الكتاب، ومنهجه، وموضوعاته المحورية، تجعلنا واقعياً نتوقع أن يكون استخدامه ضمن دائرة محدودة من الأكاديميين والمهتمين بالشأن العام من الباحثين والمثقفين؛ لكن هذا لا يتعارض أبداً مع إمكانية انتشار ما يضمنه من قيم وطرق تفكير ودروس مستفادة إلى فئات مختلفة من القراء والنشطاء والفاعلين في مجالات تخصّصهم المختلفة، وذلك عبر تحليلات من دائرة النقاد والأكاديميين والمحلّين. تزداد هذه الضرورة مع ما مرت به منطقتنا العربية من حروب ونزاعات وأحداث ضخمة من احتلال العراق، إلى الربيع العربي، إلى حرب متوقعة بين عدّة دول عربية أو إسلامية. وكلّ هذا تتردّد أصداؤه على الساحة الدولية مسفراً عن تغييرات حادة في خريطة

(٤) يشير ماركس إلى أن العمل ينبغي أن يكون نشاطاً يحقق الإنسان ذاته من خلاله، ويطور بحرية طاقاته الروحية والعضوية. ويقول إن العمل ذاته ينبغي أن يكون «إشباعاً لحاجة» أكثر منه مجرد وسيلة يمكن من خلالها إشباع حاجة أخرى، ويجب أن يكون العمل قبل كل شيء «تطوعياً وحرّاً» وعمل الإنسان ذاته، ونشاطه العفوي. وسيبدو هذا النشاط خلقاً فنياً، أو على الأقل شكلاً من أشكال النشاط يمكن أن يمارس من خلال الحرفية، ولا غرو في ذلك، وماركس هو من وصف الإنتاج الإنساني بأنه يتم «وفق قوانين الجمال». انظر: الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

الحريات والتكوينات المدنية، لعل أوضح مظاهرها ما نشهده من مدّ يميني في الأمريكتين وأوروبا، كان ذروته انتخاب ترامب ونظرائه في بلدانٍ أخرى من فرنسا إلى البرازيل يحملون أفكارًا متشدّدة ضد الآخر تنطوي على عنصرية مدمّرة.

## مقارنات وسجلات بين الحاضر والماضي:

سنقابل موضوعات كثيرة في هذا الكتاب تذكّرنا بما نعيشه ونعانيه، لا سيما فيما يتعلّق بعلاقة المواطن بالسلطة. في كتاب الأمير - على سبيل المثال - نطالع مكيافيلي يتحدث عن آليات المحافظة على السلطة، وكيف أنها تخدم أغراضًا أخرى مختلفة تمام الاختلاف عمّا نعيشه في منطقتنا من أغراض الالتصاق بكرسي الحكم والمحافظة على مكاسب الحاكم وحاشيته. وقد اشتدّت حالة الاستقطاب في منطقتنا بين القوى السياسية إلى حدّ تخوين بعضهم البعض والسعي إلى تدمير الآخر، خاصّةً بعد الاضطرابات التي وقعت في أعقاب ما يُسمّى الربيع العربي. ولا شكّ أن هذا قد انعكس على حقوق وحرّيات معظم شعوب المنطقة، لا سيما حقوق التعليم والصحة والعمل اللائق، في سياقٍ عامٍّ من إضعاف المجتمع المدني وتهميش دوره إلى أبعد الحدود.

يترافق هذا الوضع مع سيطرة أشكالٍ معيّنة من التديّن، ثبت على مرّ الزمان اهتمامها بقشور وشكليات تكرّس القمع والتغييب، وتسيء إلى القيم الإيجابية في أيّ دين. ويمكننا هنا على الأقل الاستفادة بما جاء به مارتن لوتر عند بحثه في كيفية إزالة الهياكل الراسخة للسلطة الدينية، كونها تخدم في إعاقه العلاقة المباشرة الواجبة بين الناس وربّهم، وما كان يرجوه في أن تسفر إزالة هياكل سلطة الدين الراسخة عن منح الناس نصيبًا أوفر من الحرية الروحانية، فنراه يقول: يمكن للفرد أن يكون «مسؤولًا عن إيمانه الشخصي. ويجب أن يُنظر إلى إيمانه هذا بوصفه الإيمان الصحيح بالنسبة إليه» (انظر الفصل الرابع). فالإيمان داخل مجتمع المؤمنين - عند لوتر - مسألة يجب تركها لكل شخص. إذ لا يمكن لأحدٍ أن يجبر الآخر على اعتناق مذاهب لا يؤمن بها من وازع إرادته، وضميره الشخصي: «الإيمان عمل حرٌّ، لا يمكن إكراه أحدٍ عليه».

ما أوجنا اليوم إلى هذا الخطاب! خطاب قامت على أساسه نضالات التحرر، التي أثمرت نهضةً حررت شعوباً كثيرة، ليس في أوروبا وحدها؛ بل في بلدانٍ كثيرة حول العالم تحررت من قيود التسلط والسيطرة الظالمة باسم العقائد، أو الترهيب بالأفكار الشمولية التي تستبعد الآخر من منظومتها الفكرية.

هذه مجردٌ لمحاتٍ من كتاب يزخر بتحليلاتٍ معمّقة وعلميّة لكل ما قد يتبادر إلى أذهاننا عند تحليل واقعنا، سواء من الناحية الإيجابية أو السلبية. والكتاب أيضاً لا يخلو من مادة أدبية وفلسفية، ملهمة للباحثين والكتّاب في تناولهم قضايا كثيرة، وتفنيدها على أرضية ثقافية مغايرة للثقافة التي نشأت فيها هذه الأطروحات الفلسفية؛ كأن نتناول مثلاً بالتحليل «حالة الطبيعة» عند هوبز ولوك وروسو، و«الوضع الأصلي» عند رولز، وأن يبادر أحد محلّلي المجتمع المدني في مجتمعاتنا العربية بتحليل نظام «السوق الحرة» بناءً على معطيات الواقع، وكيفية تطورها كمنظومة إنسانية، ثبت بعد زمنٍ طويل - منذ تحليلات آدم سميث - أنها أكبر مؤثرٍ في الحياة الإنسانية على مدار الزمن، لا سيما ما أسفرت عنه في عالمنا المعاصر من تغول الشركات الكبرى في مجالاتٍ عديدة، منها الدواء والاتجار في المياه والأراضي الزراعية، والغذاء.. إلخ.

### المجتمع المدني في العالم العربي:

«ولكن أليس معنى هذا أنه ينبغي أن ننظر إلى «الدولة»، لا باعتبارها جهازاً للحكم فحسب، بل باعتبارها أيضاً جهازاً خاصاً لـ«الهيمنة»، أو المجتمع المدني؟».

(غرامشي)

لا شك أن صدور الطبعة العربية من هذا السفر المهم يُعدُّ مناسبةً جيدةً لمتابعة ما يتعلّق بموضوعاته المحورية بما يجري من أحوالٍ تمسُّ المجتمع المدني في منطقتنا العربية. فنحن في نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، وبعد انقضاء أكثر من خمسة عشر عاماً على صدور أول طبعة من هذا الكتاب، وما حدث في هذه الأعوام الطويلة من تطوراتٍ على الساحة

السياسية المحلية والإقليمية والدولية، ما زلنا نعاني من سوء فهم وربما نوع من تشوه الوعي فيما يتعلق بماهية المجتمع المدني وأهميته وحدوده. وهذا للأسف ليس على مستوى الحكومات فحسب؛ بل أيضًا وسط من يزعمون تمثيل المجتمع المدني من كياناتٍ (غير هادفة للربح) وأخرى تدافع عن (حقوق الإنسان) لكنها تمارس ما تمارسه الحكومات من فسادٍ وربما ظلم داخلي وسط العاملين فيها. والأمر لا يختلف كثيرًا عن وضع الكيانات الأخرى للمجتمع المدني من أندية وجمعيات وأحزاب، فالجميع ما زال يتخبط ويتعامل مع مجرد انطباعاتٍ حول مفهوم المجتمع المدني، كل انطباع حسب السياق الجذاب الذي استقى منه معنى هذا المجتمع المدني: البعض يراه مرتعًا للعمولات مع الشركات الأجنبية، والبعض يراه عكس الجيش والمؤسسة العسكرية ومن ثمَّ يراه معارضًا ومعاديًا لها، وآخرون يرون المجتمع المدني ساحة نضالٍ ضد الحكومة، علاوة على تصوره باعتباره مؤسساتٍ تعمل في قضايا ساخنة لتحصل على دعمٍ من مؤسسات التمويل الدولية.

لذا نستعرض فيما يلي بعض القضايا المثيرة للجدل والبحث، التي ربما تساهم في تحفيز الطلاب أو الباحثين أو نشطاء المجتمع المدني، على استكمال ما بدأه باحثون أفاضل من محاولة لإلقاء الضوء على إشكالية المجتمع المدني في الدول العربية. وقد قسمنا ملاحظتنا في هذا الشأن إلى مستويين: فكري وتطبيقي.

### أولاً: على المستوى الفكري:

من خلال متابعة بعض الكتابات العربية المرتبطة بقضايا التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المنطقة العربية، التي تعرضت لمفهوم المجتمع المدني بشكلٍ أو بآخر، تتضح لنا مجموعة من المشكلات والصعوبات المرتبطة بتعامل باحثي العلوم السياسية والاجتماعية مع الموضوع<sup>(٥)</sup>، ومن بينها على سبيل المثال:

---

(٥) حسنين توفيق إبراهيم، محرر، بناء المجتمع المدني: المؤشرات الكمية والكيفية، أوراق ندوة المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٦٩٠.

■ ضعف التأصيل النظري لمفهوم المجتمع المدني. وذلك على الرغم من شيوع استخدامه في الأدبيات المعنوية، بصورة ملفتة للنظر، خلال الفترة الأخيرة. بل إنه أصبح من لزوميات الحديث والكتابة في قضايا عديدة. مثل: الديمقراطية، وطبيعة الدولة، ودور الأحزاب وجماعات المصالح، وظاهرة الانتقال نحو القطاع الخاص في الوطن العربي... إلخ<sup>(٦)</sup>.

■ الاختلاف في تكييف طبيعة مفهوم المجتمع المدني. فالبعض يستخدم المفهوم وما يرتبط به من مؤسسات اجتماعية خاصة؛ كمقابل للدولة وما يرتبط بها من مؤسسات اجتماعية عامة. فالمجتمع المدني يحد من تسلط الدولة، ويحمي الأفراد والجماعات من تعسفها. إذ إن مؤسسات المجتمع المدني تسمح للأفراد بتنظيم أنشطتهم باستقلالية عن جهاز الدولة<sup>(٧)</sup>. وفي هذا الإطار، فإن مفهوم المجتمع المدني عربياً، يستخدمه بعض الناس ضد السلطة التي تقوم على أساس محو المجتمع المدني بمؤسساته الفاعلة كالأحزاب السياسية، والنقابات العمالية والمهنية، وإخضاعها مباشرة للسلطة السياسية، والقضاء على استقلال المؤسسات الثقافية، ومحو دولة القانون، وتأسيس الدولة البوليسية أو دولة المخابرات<sup>(٨)</sup>. وهناك آخرون يستخدمون المجتمع المدني بوصفه وسيلة للحد من جور المؤسسات الدينية وتسلطها على المجتمعات، خاصة الأقلية. إذ تأتي هنا دعوات فصل الدين عن الدولة، أي إعلان مبادئ العلمنة الكاملة كأحد المدخلات لبناء المجتمع المدني. فالقانون المدني مستقل عن الدين. وهناك فريق ثالث يقيم تمييزاً بين المجتمع المدني والمجتمع الكلي، وفريق آخر يستخدم المدني كمقابل للعسكري. وهو ما يوضح أن المفهوم «حمال أوجه»<sup>(٩)</sup>.

■ المواقف الحديثة بشأن وجود المجتمع المدني من عدمه في المنطقة العربية. حيث يمكن هنا أن نميز بين موقفين: الأول ينفي وجود هذا

---

(٦) المرجع السابق.

(٧) خلدون حسن النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١، ص ٣٣٦.

(٨) السيد ياسين، سقوط الأساطير السياسية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٥، يناير ١٩٩١، ص ٣٧.

(٩) حسنين توفيق إبراهيم، مرجع سابق، ص ٦٩٢.

المجتمع. والثاني يقول بوجوده، لكن مع بعض التحفظات. وتتمثل حجج القائلين بغياب المجتمع المدني فيما يلي:

أ - أن مفهوم المجتمع المدني ارتبط أساسًا بالخبرة السياسية للدول الرأسمالية الغربية التي استندت إلى المشروع الحر والتنمية الرأسمالية على المستوى الاقتصادي، والديمقراطية الليبرالية على المستوى السياسي.

ب - أنه بغض النظر عن دور الاستعمار الغربي في خلق الكيانات السياسية الحديثة في المنطقة العربية، متمثلة في حكومات ما بعد الاستعمار، فمن المؤكد أنها ورثت ما يُسمّى بـ«التنظيمات». وهي تتمثل في جهاز الدولة بنظمه الإدارية والقانونية، وشبكة علاقاته مع السوق الرأسمالية. ولقد نتج عن ذلك أن تأسس دولة حديثة في المنطقة العربية لم يأت في علاقة صحيّة مع مجتمعاتها، حيث إن عملية تفكيك المجتمع التقليدي لم تعقبها عملية بناء وتطوير لمجتمع مدنيّ حديث، يكون بمنزلة الأساس الاجتماعي للدولة، والركيزة الأساسية للديمقراطية. وهكذا لم تتحقّق في منطقتنا لا دولة القانون والمؤسسات من ناحية، ولا المجتمع المدني الحقيقي من ناحية أخرى<sup>(١٠)</sup>.

ج - أن النُخب التي سيطرت على جهاز الدولة في مرحلة ما بعد الاستقلال، تغلّغت في مختلف مجالات المجتمع وجوانبه، وأحكمت السيطرة عليها، ولم تسمح من الأساس بظهور مؤسسات مدنية، أو أنها أخضعها لسيطرة الدولة الكاملة في حالة السماح بقيامها. وهكذا، لا يوجد فصل بين الدولة وبين المجتمع في الوطن العربي الذي لا يعرف حتى الآن المجتمع المدني نطاقًا يختلف عن النطاق السياسي - الإداري للدولة، بوصفها سلطة سياسية تضمن وظائفية المجتمع، وإن كانت لا تتحكّم بها نظرًا لاستقلالها<sup>(١١)</sup>.

أما القائلون بوجود مجتمع مدنيّ في المنطقة العربية، فيقدّمون عديدًا من

---

(١٠) تأصيلًا لهذا الرأي، انظر: علي أومليل، «حول أسباب العنف السياسي»، في: أسامة الغزالي حرب، محرّر، العنف والسياسة في الوطن العربي (عمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٧م).

(١١) بسام الطيبي، البناء الاقتصادي الاجتماعي للديمقراطية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٧٩.

التحفظات، مثل: التمييز بين الأقطار العربية طبقاً لدرجة تطورها الاقتصادي والاجتماعي<sup>(١٢)</sup>.

وفي إطار الجدل حول وجود مجتمع مدنيّ أم لا، أكّد بعض الباحثين على أن مفهوم المجتمع المدني في الغرب لا مجال لوجوده في مجتمعات العالم الثالث، والمجتمعات العربية. أو على الأقل لا يمكن تطبيقه حرفياً على واقع هذه المجتمعات. فهو جزء من ميراث الحضارة الغربية الرأسمالية. وعلى الرغم من ذلك، فإن هؤلاء الباحثين لم يطرحوا تصوراً بديلاً لمفهوم المجتمع المدني بالمعنى الغربي. وكل ما أكّدوا عليه هو الحديث عن المجتمع المدني في الوطن العربي بشكل تقريبيّ من خلال بعض جوانبه.

### ثانياً: على المستوى التطبيقي:

لا يمكننا بحالٍ من الأحوال أن نعّم القول فيما يتعلّق بالمجتمع المدني على جميع الدول العربية. فعملية طرح مؤشرات كميّة وكيفية لبناء المجتمع المدني في منطقتنا، تستهدف واقعاً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً قائماً في الأقطار العربية. وي طرح هذا الواقع عديداً من الصعوبات والمشكلات أمام الممارسة البحثية الهادفة إلى بناء هذه المؤشرات وتطويرها<sup>(١٣)</sup>. ومن أهم تلك الصعوبات:

■ تباينات الأوضاع المجتمعية من قُطر إلى آخر من الأقطار العربية. حيث يمكننا - بناءً على هذه التباينات - أن نتحدّث عن مجتمعاتٍ عربية، وليس عن مجتمعٍ عربيّ واحد. وذلك للتباين في درجة التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، وفي التركيب الديمغرافي من ناحية، والتركيب الاجتماعي والإثني ودرجة التجانس القومي والانصهار الاجتماعي من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة من حيث درجة تطور وتبلور القوى السياسية والاجتماعية والتكوينات الطبقية والتيارات السياسية والفكرية.

■ الازدواجية داخل المجتمعات العربية، أو «التطوّر المتفاوت

(١٢) للاستفاضة في هذه التحفظات، انظر: حسين توفيق إبراهيم، مرجع سابق، ص ٦٩٥.

(١٣) المرجع السابق، ص ٦٩٧.

والمركب»، حسب أندريه غوندر فرانك Andre Gunder Frank. ويتمثل بصفة رئيسة في وجود مكونات المجتمع التقليدي ورموزه، جنباً إلى جانب رموز المجتمع الحديث ومكوناته.

■ كذلك إن للدين الإسلامي دوراً محورياً داخل منظومة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية في المنطقة. كما أن له دوراً مهماً في الحياة السياسية، سواء على مستوى توظيفه من قبل النظم السياسية لتدعيم شرعيتها من ناحية، أو توظيفه لمعارضتها وتحديثها من قبل بعض القوى السياسية من ناحية ثانية<sup>(١٤)</sup>. ومن ثم، فهو مكون مهم في النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي للأقطار العربية. فهل يمكن بناء مجتمع مدني في منطقتنا بعيداً عن الإسلام، على غرار ما حدث من خبرات بناء المجتمع المدني في الغرب، حيث كانت العلمنة إحدى المقومات الأساسية في ذلك البناء؟

■ مشكلة الدولة في الوطن العربي. والتحدّي هنا يكمن في عدم إمكانية بناء مجتمع مدني في ظل غياب أو ضعف دولة القانون والمؤسسات. في هذا الإطار، يمكننا بلورة أبرز عناصر مشكلة الدولة في الوطن العربي، فيما يلي:

أ - ضعف الدولة وهشاشتها: في العديد من الدول العربية، تبدو الدولة قويةً بحكم احتكار سلطة التشريع، والتنفيذ، وإصدار القرارات، واتخاذ الإجراءات الأمنية. ناهيك عن وجود أجهزة أمنية حديثة ومتطورة مجنّدة لخدمتها. وعلى الرغم من ذلك، فإن قدرة هذه الدولة على تنفيذ القرارات والسياسات قدرةً محدودة، باستثناء الشق الأمني الذي لا يمكن للنخبة المسيطرة على جهاز الدولة أن تتهاون فيه. وبالتالي، فهي دولة ضعيفة في مجال الإنجاز الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

ب - عدم تأسيس شرعية ثابتة ومستقرة للدولة.

ج - ثمة شبه اتفاق على أن الدولة القطرية تعثرت في إنجاز الأهداف والطموحات الكبرى للعرب.

د - زيادة تبعية الدول العربية للخارج.

---

(١٤) المرجع السابق، ص ٦٨٠.

علاوة على ما تقدّم من جوانب نظرية وتطبيقية، هناك مستوى وبائي من الفساد يطيح بأي محاولة للإصلاح أو التغيير واستعادة الحقوق والحريات للفئات العريضة المقموعة والمهمّشة! وربما الجديد في هذا الأمر ليس وجود الفساد بأشكاله المختلفة؛ بل درجة شدّته في العقود الأخيرة، مما وسع الهوة بين الطبقات وزاد من تفكُّك المجتمعات في ظل تسلُّط حكوماتها. وهذا ما يذكّرنا بما قاله مكيافيلي من أن الفساد هو عدوُّ كل الأنظمة خصوصًا الصالح منها (انظر الفصل السادس). ولا شك أن ما استعرضه المؤلفان في الفصل السادس من تفاصيل إدارة الحكم في ظروفٍ سياسية مختلفة، يجعلنا في الحال نقارن بين ما ينقله لنا من خبراتٍ ودروسٍ وبين ما نعيشه الآن، فهما يقولان: «غالبًا ما ينظر إلى نصيحة مكيافيلي إلى القادة السياسيين، حول كيفية اقتناص السلطة السياسية عن طريق العنف، والاحتفاظ بها عبر الخداع، بوصفها علامة الطريق في السياسة الحديثة. غير أن وجهة النظر المكيافيلية لا تمضي من دون حدود أخلاقية، غالبًا ما يتم تجاهلها في السياق المعاصر من السياسات المحلية والدولية. وفي إظهار طبيعة هذه الحدود، من الممكن إعلام المفكرين المعاصرين بالقيود التي ينبغي على الجميع - من بينهم الساسة الأكثر مكيافيلية - أن يراعوها. وفي هذا نقلنا الكاتب إلى استعراض مسرحية الماندراغولا وما تحويه من دروسٍ جديدة حول طبيعة المجتمع الذي يصل أفراده إلى غاياتهم بأي وسيلة!

### ملاحظات لغوية:

«إيقاع الأسلوب هو أصعب ما يمكن نقله من لغةٍ إلى أخرى: فهو يجد أساسه في طابع اللغة العرقي؛ أو بعبارة أكثر فسيولوجية، في متوسط إيقاع أعضائها».

### (نيتشه)

يبقى في النهاية أن نشير إلى بعض الملاحظات اللغوية التي ترتبط بتنوع النصوص الواردة في هذا المرجع:

أولاً: فيما يتعلّق بنوع الأسلوب السائد بين معظم الفلاسفة في هذا الكتاب، سنجدّه جانحًا نحو الدراما الفلسفية، نحو البحث عن السلوان في

ظلّ ما يتعرض له المجتمع الإنساني من تدهور، خصوصًا في منظومات القيم، والأخلاق عامةً.

ثانيًا: سنجد أيضًا أن شيئًا لا يصرع هذا الأسلوب، إلا ما يطرحه الحل السياسي من عمل واقعيٍّ وممارسة الحقوق، منعكسًا ذلك في سعي الإنسان من الإفلات من ملابساتِ فلسفية حرجة ودقيقة، حدتْ بالبشرية أن تعرج على أساليب متنوّعة، أشهرها البنيوية والتفكيكية، وما بعد البنيوية... إلخ.

ثالثًا: حرصنا على نقل ما أورده الكاتب من فقراتٍ استشهد بها من النصوص الأصلية البارزة، حيث رأينا أهمية نقلها ببلاغتها وتنوعها وصعوبتها أيضًا على المستويين اللغوي والجمالي في النصّ الإنجليزي. لذلك، وضعنا النصّ الإنجليزي تحت الترجمة العربية لتلك الفقرات في بعض الفصول. وفي هذا لجأنا أحيانًا إلى الترجمات السابقة لأهم الأعمال الفلسفية الكلاسيكية لأفلاطون وأرسطو وماركس وغيرهم، وأحيانًا أخرى اجتهدنا في تقديم ترجمة جديدة لبعض النصوص الكلاسيكية، وقد لقيت استحسان ورضا الأساتذة المتخصّصين ممّن راجعوا النصّ قبل نشره.

رابعًا: لم تكن عبارة «نيتشه» التي افتتحنا بها هذا التصدير سوى تعبيرٍ عن ميلنا نحو تحييد درجة من الاندماج مع اللغة وتذوقها فيما يخص إيقاع الأسلوب. فكتابة جون لوك الإنجليزية التي نميزها بمفرداتٍ ثاقبة ومباشرة، تختلف عن كتابة روسو الفرنسية التي تغلّفها الشاعرية، وانتقاء المفردات التي تلهب المشاعر. وهما نوعان مختلفان من الكتابة يختلفان تمامًا عن الكتابة الألمانية، خصوصًا كما وردت هنا من خلال أعظم من كتبوا بالألمانية: هيغل وكانط وماركس ونيتشه. سنجدها عند هذا الأخير مثلًا لغة متدفّقة، تتميز باختيار الرموز الحيّة، والكلمات المنمّقة، والأشعار الرائعة التي لا تبرح ذهنك دون أن تجبرك على معاودة هذا الفيلسوف مراتٍ ومراتٍ. وهو فخٌّ له مذاقه الخاص، نتمنّى لو وقع فيه جميع القراء ممّن لم يقابلوا نيتشه بعد. «فهو يطرح مقولاته بأشد أشكال الصيغ تطرفًا وأقواها خطابًا. وهذا ما دفع صغار المفكرين - مثلما يقول «رودولف شتاينر» - إلى أن يدقّوا نواقيس الخطر، معلنين على الملأ أن روحًا خطيرة قد ظهرت إلى الوجود».

ولعلنا نستطيع نقل هذا الانطباع من خلال فقرة ممثلة لهذه الحالة من كتاب نيتشه «نشوء الأخلاق»:

«عندما اصطدمت في الشرق جيوش الصليبيين بالجيوش المحليّة التي لا تُقهر، ويمتلك أفرادها عقولاً حرّة بامتياز، ويعيشون - لا سيما ذوي الدرجات الدنيا منهم - بكامل الطاعة والانضباط؛ عندئذ جاءتهم - بطريقة ما - إشارة حول الرموز والكلمة الخطأ. أما القيادات العليا، فاحتفظت بالسّر: «لا توجد حقيقة. وكل شيء مباح». ومنذ تلك اللحظة، ربحت الروح حريتها، وأصبحت الحقيقة خادمة العقيدة»<sup>(١٥)</sup>.

لا شكّ إذن أن الكتاب - كما ذكرنا آنفًا - في حاجة إلى نوعية خاصّة من القراءة، بعيدًا بالطبع عن جانب «الفائدة» التي يقدّمها. فهذه الفائدة واضحة لمن يريد أن يقصر هدفه على الاستخدامات العملية للكتاب؛ كمرجع على سبيل المثال. أما عن التذوق والجدل، فللكتاب شأنٌ آخر مع القراء.

يبقى أن أتوجّه بالشكر إلى مركز نهوض للدراسات والنشر على ما بذله من جهدٍ لنشر هذا المرجع المهم، متمنيًا أن يكون له الأثر المتوقّع في تحفيز ملكة النقد عند القارئ العربي، بما يُسهم في إثارة مزيدٍ من التحركات الساعية إلى تنشيط المجتمع المدني في بلداننا العربية، والخروج بالمجتمعات ككلّ من شرنقة الظلم والفساد.

ربيع وهبة

أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٩م

---

(١٥) رودولف شتاينر، نيتشه مكافئًا ضد عصره، ترجمة حسن صقر، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٨م، ص ٥١.